والفضلات ، ويدخل إليها من أضيق الأماكن ، لكن نرى مثلاً محلات الحلوى مليئة بالسكر الذى يعشقه النمل ، ومع ذلك لا نجد فى هذه المحلات نملة واحدة ، لماذا ؟ لما تتبَّعوا هذه الظاهرة بالدراسة وجدوا أن النمل لا يدخل المكان إذا كان به سِمْسِم ، وهذه من عجائب النمل أيضاً .

وقوله تعالى : ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ .. (١٨)﴾ [النمل] الحَطْم هو التكسير ، ومنه قوله سبحانه عن النار : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥)﴾ [الهمزة] لأنها تحطم ما يُلْقى فيها .

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾

تبسَّم سليمان - عليه السلام - بالبسمة التى تتصل بالضحك ، لماذا ؟ لأنه سمعها قبل أنْ يصل إليها ، ولأنها رأتْ قبل أن يأتى المرئى ، وقد تكلم البعض فى هذه المسألة فقالوا : إن الريح نقلتْ إليه مقالة النملة ، وهو ما يزال بعيداً عنها ، وهذا الكلام يُقبل لو أن المسألة (ميكانيكا) إنما هى عمل رب وقدرة خالق مُنعِم ينعم بما يشاء .

ونطق قائلاً ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي .. (١٩)﴾ [النمل] أى : امنعنى أنْ أغفل ، أو أنْ أنسى هذه النِّعم ، فأظل شاكراً حامداً لك على الدوام ؛ لأن هذه النعَم فاقتْ ما أنعمت به على عامة الخَلْق ، وفوق ما أنعمتُ به على إخوانى من الأنبياء السابقين ، وعلى كل ملوك الدنيا ؛ لأنه عليه السلام جمع بين المُلْك والنُّبوة ، وإنْ كان سيدنا رسول الله ﷺ

عرض عليه المُلْك فرفضه ، وآثر أن يكون عبداً رسولاً .

لذلك وجب على كل صاحب نعمة أنْ يستقبلها بحمد الله وشكْره ، وسبق أنْ قُلْنا فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر] أن حق النعمة أن تحمد المنعم عليها ، فلا تُسأل عنها يوم القيامة .

وما أشبه الحمد على النعمة بما يُسمُّونه عندنا فى الريف (الرقوبة) ، وهى بيضة تضعها ربَّة المنزل فى مكان أمين يصلح عُشاً يبيض فيه الدجاج ، فإذا رأتْ الدجاجة هذه البيضة جاءتْ فباضتْ عليها ، وهكذا شكر الله وحمده على النعم هو النواة التى يتجمع عليها المزيد من نعَم الله .

وقد شُرح هذا المعنى فى قوله سبحانه : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ.. ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم] ألاَ ترى أن مَنْ علم علماً فعمل به أورثه الله علم ما لم يعلم ؟ لماذا ؟ لأنه ما دام عمل بعلمه ، فهو مُؤْتمن على العلم ؛ لذلك يزيده الله منه ويفتح له مغاليقه ، على خلاف مَنْ علم علماً ولم يعمل به ، فإنَّ الله يسلبه نور العلم ، فيغلق عليه ، وتصدأ ذاكرته ، وينسى ما تعلَّمه .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ..﴿١٢﴾﴾ [لقمان] أى : تعود عليه ثمرة شُكْره ؛ لأنه إنْ شكر الله بالحمد شكره الله بالزيادة ؛ لذلك من أسمائه تعالى (الشكور) .

وقوله : ﴿عَلَيَّ .. ﴿١٩﴾﴾ [النمل] هذه خصوصية ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ﴿١٩﴾﴾ [النمل] لأنه ورث عنهما المُلْك والنبوة ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ .. ﴿١٩﴾﴾ [النمل] وهذا ثمن النعمة أن أؤدى خدمات الصلاح فى المجتمع لأكون مُؤْتمناً على النعمة أهْلاً للمزيد منها .

والحق - تبارك وتعالى - يريد منَّا أنْ نُوسِّع دائرة الصلاح ودائرة المعروف في المجتمع ، ألاَ ترى إلى قوله سبحانه : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

فسمَّى الخير الذى تقدمه قَرْضاً ، مع أنه سبحانه واهب كل النِّعم ، وذلك ليُحنِّن قلوب العباد بعضهم على بعض ؛ لأنه تعالى خالقهم ، وهو سبحانه المتكفِّل برزقهم .

ثم يقول : ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾ [النمل] وذكر الرحمة والفضل ؛ لأنهما وسيلة النجاة ، وبهما ندخل الجنة ، وبدونهما لن ينجو أحد ، واقرأ قول رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ﷺ ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمَّدنى الله برحمته »[1] .

ويقول سبحانه فى هذا المعنى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨)﴾ [يونس] فالمؤمن الحق لا يفرح بعمله ، إنما يفرح إنْ نال فَضْلَ الله ورحمته ، كأنه يقول لربه : لن أتكل يا رب على عملى ، بل فضلك ورحمتك هما المتكل ، لأننى لو قارنتُ العبادة التى كلفتنى بها بما أسديْتَ إلىَّ من نعَم وآلاء لَقَصُرَتْ عبادتى عن أداء حقِّك علىَّ ، فإنْ أكرمتنى بالجنة فبفضلك .

والبعض يقولون : كيف يعاملنا ربنا بالفضل والزيادة ، ويُحرِّم علينا التعامل بالربا ؟ أليست الحسنة عنده بعشرة أمثالها أو يزيد ؟ نقول : نعم ، لكن الزيادة هنا منه سبحانه وتعالى وليستْ من مُسَاوٍ ، إنها زيادة ربٍّ لعبيد .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقوله ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾ [النمل] دليل على تواضع سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ فمع مكانته ومنزلته يطلب أنْ يُدخله الله فى الصالحين ، وأن يجعله فى زمرتهم ، فلم يجعل لنفسه مَيْزَةً ولا صدارة ولا ادَّعى خيرية على غيره من عباد الله ، مع ما أعطاه الله من الملْك الذى لا ينبغى لأحد من بعده .

وأعطاه النبوة وحمَّله المنهج ، فلم يُورثه شىء من هذا غروراً ولا تعالياً ، وها هو يطلب من ربه أن يكون ضمن عباده الصالحين ، كما نقول (زقنى مع الجماعة دول) ، حين تكون السيارة مثلاً كاملة العدد ، وليس لى مقعد أجلس عليه .

مَنْ يقول هذا الكلام ؟ إنه سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ الذى آتاه الله مُلْكاً ، لا ينبغى لأحد من بعده ، ومع ذلك كان يُؤثر عبيده وجنوده على نفسه ، وكان يأكل (الردة) من الدقيق ، ويترك النقى منه لرعيته .

إذن : لم ينتفع من هذا الملْك بشىء ، ولم يصنع لنفسه شيئاً من مظاهر هذا الملك ، إنما صنعه له ربه لأنه كان فى عَوْن عباد الله ، فكان الله فى عَوْنه ، وأنت حين تُعين أخاك تُعينه بقدرتك وإمكاناتك المحدودة ، أما معونة الله تعالى فتأتى على قَدْر قوته تعالى ، وقدرته وإمكاناته التى لا حدودَ لها ، إذن : فأنت الرابح فى هذه الصفقة .

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠)﴾

مادة : فقد الفاء والقاف والدال ، وكل ما يُشتقّ منها تأتى بمعنى ضاع منه الشىء ، ومنه قوله تعالى فى قصة إخوة يوسف : ﴿قَالُوا

وأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) ﴾ [يوسف] ، فإنْ جاءت بصيغة (تفقَّد) بالتضعيف دلَّتْ على أن الشيء موجود وأنا أبحث عنه في مظانّه .

فمعنى ﴿ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ .. (٢٠) ﴾ [النمل] أن الرئيس أو المهيمن على شيء لا بُدَّ له من متابعته ، وسليمان ـ عليه السلام ـ ساعةَ جلس في مجلس العلم أو مجلس القضاء نظر للحاضرين من مملكته ، كأنه القائد يستعرض جنوده ، وفي هذا إشارة إلى أنه ـ عليه السلام ـ مع أن هذا ملكه ومُسخَّر له ومُنقَاد لأمره ، إلا أنه لم يتركه هَمَلاً دون متابعة .

لكن ، لماذا تفقَّد الطير بالذات ؟ قالوا : لأنه أراد أنْ يقوم برحلة في الصحراء ، والهدهد هو الخبير بهذه المسألة ؛ لأنه يعلم مجاهلها ، ويرى حتى الماء في باطن الأرض[1] ، يقولون : كما يرى أحدكم الزيت في وعائه .

لذلك نرى أن من مميزات الهدهد أن الله تعالى جعل له منقاراً طويلاً ؛ لأنه لا يأكل مما على سطح الأرض ، إنما ينبش بمنقاره ليُخرج طعامه من تحت الأرض .

ألاَ تراه حين كلَّم سليمان في دقائق العقيدة والإيمان بالله يقول عن أهل سبأ : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[2] فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ [النمل] فاختار هذه المسألة بالذات ؛ لأنه الخبير بها ورزقه منها .

ولما لم يجد الهدهد في الحاضرين قال ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى

---

(١) أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : ذُكر لنا أن سليمان أراد أن يأخذ مفازة فدعا بالهدهد وكان سيد الهداهد ليعلم مسافة الماء ، وكان قد أعطي من البصر بذلك شيئاً لم يُعْطه شيء من الطير ، لقد ذكر لنا : أنه كان يبصر الماء في الأرض كما يبصر أحدكم الخيال من وراء الزجاجة . أورده السيوطي في الدر المنثور (٣٤٩/٦) .

(٢) الخبأ : الشيء المخبوء . والخبء كل ما غاب ، وكل شيء غائب مستور . [لسان العرب ـ مادة : خبأ] .

الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] فساعةَ يستفهم الإنسان عن شيء يعلم حقيقته ، فإنه لا يقصد الاستفهام ، إنما هو يستبعد أنْ يتخلَّف الهدهد عن مجلسه .

لذلك قال ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ .. (٢٠)﴾ [النمل] يعني : ربما هو موجود ، لكنِّي لا أراه لعلّة عندي أنا ، فلما دَقّق النظر وتأكد من خُلوِّ مكانه بين الطيور ، قال ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] إذن : لا بد من معاقبته :

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١)﴾

ومعاقبة المخالف أمر ضروري ؛ لأن أيَّ مخالفة لا تُقابل بالجزاء المناسب لا بُدَّ أن تثمر مخالفات أخرى متعددة أعظم منها ، فحين نرى موظفاً مُقصِّراً في عمله لا يحاسبه أحد ، فسوف نكون مثله ، وتنتشر بيننا الفوضى والتكاسل واللامبالاة ، وتحدث الطَّامة حينما يُثاب المقصر ويُرَقى مَنْ لا يستحق .

لذلك توعَّد سليمان الهدهد : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ..(٢١)﴾ [النمل]

وقد تكلَّم العلماء في كيفية تعذيب الهدهد ، فقالوا : بنتف ريشه الجميل الذي يزهو به بين الطيور ، حتى يصير لحماً ثم يُسلط عليه النمل فيلدغه[1] ، أو بجعْله مع غير بني جنسه ، فلا يجد لها إلفاً

(١) قال ابن عباس : قوله ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا .. (٢١)﴾ [النمل] يعني : نتف ريشه . وقال عبد الله بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٦٠) : « وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه مُلْقىً يأكله الذر والنمل » .

ولا مشابهاً له فى حركته ونظامه ، أو : أنْ يُكلِّفه بخدمة أقرانه من الهداهد التى لم تخالف ، أو : أجمعه مع أضداده ، وبعض الطيور إذا اجتمعتْ تنافرتْ وتشاجرتْ ، ونتف بعضها ريش بعض ؛ لأنهم أضداد ؛ لذلك قالوا : أضيق من السجن عِشْرة الأضداد .

والشاعر[1] يقول :

وَمِنْ نكَدِ الدُّنْيا علىَ المرْءِ أنْ يرى عَـدُواً لَهُ مَا مِـنْ صَدَاقَتِه بُدُّ

ثم رقَّى الأمر من العذاب الشديد إلى الذبح ، وهذه المسألة أثار حولها المتمردون على منهج الله والذين يريدون أنْ يُعدِّلوا على الله أحكامه ، أثاروا إشكالاً حول قوله تعالى فى حَدِّ الزنا : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ .. ② ﴾ [النور] أما الرَّجْم فلم يَرِدْ فيه شيء ، فمن أين أتيتم به ؟

نقول : أتينا به أيضاً من كتاب الله ، حيث قال سبحانه فى جَلْد الأَمَة إنْ زنتْ وهى غير محْصنة : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. ㉕ ﴾ [النساء] فقالوا : وكيف نُنصِّف حدَّ الرجم ؟ وهذا القول منهم دليل على عدم فهمهم لأحكام الله .

فالمعنى ﴿ فَعَلَيْهِنَّ .. ㉕ ﴾ [النساء] أى : على الإماء الجوارى ﴿ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ .. ㉕ ﴾ [النساء] الحرائر ، ولم يسكت إنما خصص التنصيف هنا بالجلْد ، فقال : ﴿ مِنَ الْعَذَابِ .. ㉕ ﴾ [النساء] فتجلد الأَمَة خمسين جلدة ، وهذا التخصيص يدل على أن هناك عقوبة أخرى لا تُنصف هى الرجْم .

(١) الشاعر هو : أبو الطيب المتنبى أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، وأحد مفاخر الأدب العربى ، ولد بالكوفة (٣٠٣ هـ) ، ونشأ بالشام وتنبأ فى بادية السماوة ، ثم تاب ورجع عن دعواه . قُتل ٣٥٤ هـ ، بأن عرض له فاتك بن أبى جهل الأسدى . [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

وينتهى تهديد سليمان للهدهد بقوله ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾ [النمل] أى : حجة واضحة تبرر غيابه ، فنفهم من الآية أن المرؤوس يجوز له أنْ يتصرف برأيه ، دون أن يأخذ الإذن من رئيسه إنْ رأى مصلحة للجماعة لا تستدعى التأخير .

وعلى الرئيس عندها أن يُقدِّر لمرؤوسيه اجتهاده ، ويلتمس له عذراً ، فلعله عنده حجة أحمده عليها بل وأكافئه ؛ لأن وقت فراغه منى كان فى مصلحة عامة ، كما نقول فى العامية (الغايب حجته معاه)

إذن : المرؤوس إنْ رأى خيراً يخدم الفكر العام ، ووجد أن فرصته ضيقة يسمح له بالتصرف دون إذن ، وفى الحرب العالمية الأولى تصرَّف أحد القادة الألمان تصرُّفاً يخالف القواعد الحربية ، لكنه كان سبباً فى النصر ؛ لذلك أعطوه وسام النصر ولم ينسُوا أنْ يُعاقبوه على مخالفة القواعد والقانون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾

معنى ﴿فَمَكَثَ .. (٢٢)﴾ [النمل] أقام واستقر ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ .. (٢٢)﴾ [النمل] مدة يسيرة ، فلم يتأخر كثيراً ؛ لأنه يعلم أنه تخلَّف عن مجلس سليمان ، وذهب بدون إذنه ؛ لذلك تعجَّل العودة ، وما إنْ وصل إليه إلا وبادره ﴿فَقَالَ .. (٢٢)﴾ [النمل] بالفاء الدالة على التعقيب ؛ لأنه رأى سليمان غاضباً مُتحفِّزاً لمعاقبته .

لذلك بادره قبل أنْ ينطق ، وقبل أنْ ينهره ﴿أحطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. ﴿٢٢﴾﴾ [النمل] أى : عرفتُ ما لم تعرف - هذا الكلام مُوجَّه إلى سليمان الذى ملَك الدنيا كلها ، وسخَّر الله له كل شىء ؛ لذلك ذُهل سليمان من مقالة الهدهد وتشوَّق إلى ما عنده من أخبار لا يعرفها هو .

ثم يستمر الهدهد : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل]

أولاً : نقف عند جمال التعبير فى سبأ ونبأ ، فبينهما جناس ناقص ، وهو من المحسِّنات البديعية فى لغتنا ، ويعطى للعبارة نغمة جميلة تتوافق مع المعنى المراد ، والجناس أن تتفق الكلمتان فى الحروف ، وتختلفا فى المعنى ، كما فى قول الشاعر

رَحلْتُ عَنِ الدِّيَارِ لكُم أسيرُ ... وَقَلْبى فى محبتكُمْ أسير

وقَوْل الآخر :

لَمْ يَقْضِ مِنْ حقِّكم علَىَّ ... بَعْضَ الذى يَجِبُ
قَلْبٌ مَتَى مَا جَرَتْ ... ذِكْرَاكُمُ يَجِبُ

ومن الجناس التام فى القرآن الكريم : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم]

فالتعبير القرآنى ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ .. ﴿٢٢﴾﴾ [النمل] تعبير جميل لفظاً ، دقيق مَعنىً ، ألاَ تراه لو قال (وجئتك من سبأ بخبر) لاختلَّ اللفظ والمعنى معاً ؛ لأن الخبر يُراد به مُطْلق الخبر ، أمّا النبأ فلا تُقال إلا للخبر العجيب الهام الملفت للنظر ، كما فى قوله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ]

والجناس لا يكون جميلاً مؤثراً إلا إذا جاء طبيعياً غير مُتكلَّف ،

ومثال ذلك هذا الجناس الناقص فى قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ[١] لُّمَزَةٍ ①﴾ [الهمزة] فقد ورد اللفظ المناسب مُعبِّراً عن المعنى المراد دون تكلّف ، فالهُمَزة هو الذى يعيب بالقول . واللمزة : الذى يعيب بالفعل ، فالقرآن لا يتصيَّد لفظاً ليُحدث جناساً ، إنما يأتى الجناس فيه طبيعياً يقتضيه المعنى .

ومن ذلك فى الحديث الشريف : « الخيْل معقود بنواصيها الخير »[٢] فبيْن الخيل والخير جناس ناقص ، مُحسِّناً للفظ ، مؤدّياً للمعنى .

وقد يأتى المحسِّن البديعى مُضطرباً مُتكلَّفاً ، يتصيده صاحبه ، كقول أحدهم ينحت الكلام نحتاً فيأتى بسجع ركيك : فى أثناء ما كنا نسير نزل المطر كأفواه القِرَب ، فوقع رجل كان يحمل العنب .

ومعنى ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. ㉒﴾ [النمل] الإحاطة : إدراك المعلوم من كل جوانبه ، ومنه البحر المحيط لاتساعه ، ويقول سبحانه : ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ①②⑥﴾ [النساء] ومنه : الحائط يجعلونه حول البستان ليحميه ويُحدِّده ، ومنه : يحتاط للأمر .

ومحيط الدائرة الذى يحيط بالمركز من كل ناحية إحاطة مستوية بأنصاف الأقطار .

لكن أيُعَدُّ قول الهدهد لسليمان ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. ㉒﴾ [النمل] نقصاً فى سليمان عليه السلام ؟ لا ، إنما يُعَدُّ تكريماً له ؛ لأن

---

(١) الهمزة : كثير الهمز واللمز والغمز واغتياب الناس وعَيْبهم . [القاموس القويم ٢/٣٠٧] . وقيل : الهمز واللمز معناهما واحد . وقيل : الهمز فى القفا والسر . واللمز : عيب فى الوجه فى العلانية .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٤٩ ، ٢٨٥٠ ، ٢٨٥٢) من حديث ابن عمر وعروة بن الجعد وعروة البارقى ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٧٣) من حديث عروة البارقى ، ونحوه عن عروة بن الجعد .

ربه ـ عز وجل ـ سخَّر له مَنْ يخدمه ، وفرْق بين أن تفعل أنت الشيء وبين أن يُفعل لك ، فحين يفعل لك ، فهذه زيادة سيادة ، وعلُو مكانة .

كما أن الله تعالى يُعلِّمنا ألاَّ نكتم مواهب التابعين ، وأن نعطى لهم الفرصة ، ونُفسح لهم المجال ليُخرجوا مواهبهم ، وأن يقول كل منهم ما عنده حتى لو لم نكُنْ نعرفها ؛ لأنها خدمة لى .

أليس من الكرامة أن يُحضر سليمان عرش بلقيس وهو فى مكانه ﴿ قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

ونلحظ أن الهدهد لم يُعرِّف سبأ ما هى ، وهذا دليل على أن سليمان ـ عليه السلام ـ يعرف سبأ ، وما فيها من ملك ، إنما لا يعرف أنه بهذه الفخامة وهذه العظمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾

وقوله ﴿ تَمْلِكُهُمْ .. (٢٣) ﴾ [النمل] يعنى : تحكمهم امرأة ، ورأينا نساءً كثيرات نابهات حكمْن الدول فى وجود الرجال .

ثم يذكر من صفاتها ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ..(٢٣) ﴾ [النمل] وكأنها إشارة إلى ما سبق أنْ قاله سليمان عليه السلام ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (١٦) ﴾ [النمل] فهى كذلك أُوتيتْ من كل شىء بالنسبة لأقرانها ، وإلا فسليمان أُوتى من الملْك ومن النبوة ما لم تُؤْتَهُ ملكة سبأ .

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] العرش مكان جلوس الملك ، وكان العرش عادةً يتوافق مع عظمة الملك ، فمثلاً (شيخ الغفر) أو العمدة

أو المحافظ .. إلخ لكل منهم كرسيٌّ يجلس عليه يناسب مكانته ، إذن: العرش هو جِلْسة المتمكّن الذى يتولّى تَدبير الأمور .

ووصْف العرش بأنه عظيم مع أن هذا الوصف لعرش الله تعالى ، فكيف ؟ قالوا : عظيم بالنسبة لأمثالها من الملوك ، أمّا عرْش الله فعظيم بالنسبة لكل الخلْق عظمةً مُطْلقة .

هكذا حدَّث الهدهُد سليمانَ فيما يخصُّ ملكة سبأ من حيث الملك الذى تشبه فيه سليمان كملك ، ثم يُحدِّثه بعد ذلك عن مسألة تتعلق بالنبوة والإيمان بالله ، وهذه المسألة التى غار عليها سليمان ، وثار من أجلها :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ذلك لأنه لما طاف حول قصر بلقيس وجد فيه كُوَّة تدخل منها الشمس ، كما نرى فى معابد الفراعنة ، ففى أحد هذه المعابد طاقات بعدد أيام السنة ، بحيث تدخل الشمس فى كل يوم من واحدة بعينها لا تدخل من الأخرى . وكذلك كان عند بلقيس مثل هذه الكُوَّة تدخل منها الشمس فتتنبه لها وتستقبلها .

لذلك لما ذهب إليها بكتاب سليمان وقف على هذه الكُوَّة وسدَّها بجناحه ، فلم تدخل الشمس فى موعدها كما اعتادت الملكة ، فقامت حتى وصلتْ إلى هذه الكُوَّة فرمى عندها الكتاب[1] .

(١) ذكر نحوه السيوطى فى « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » (٦/٣٥٣) عن قتادة وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

فالهدهد - إذن - مؤمن عارف بقضية العقيدة والإيمان بالله يغار عليها ويستنكر مخالفتها ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله.. (٢٤)﴾ [النمل] فهو يعرف أن الله هو المعبود بحقٍّ ، بل ويعلم أيضاً قضية الشيطان ، وأنه سبب الانصراف عن عبادة الله .

﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون (٢٤)﴾ [النمل] فالقضية عنده كاملة بكل تفاصيلها ، ولا تتعجب من مقالة الهدهد واقرأ : ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

إنها موعظة بليغة من واعظ مُتمكِّن يفهم عن الله ، ويعلم منهجه ويدعو إليه ، بل ويعزّ عليه ويحزّ في نفسه أن ينصرف العباد عن الله المنْعم :

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾

﴿ألاَّ .. (٢٥)﴾ [النمل] مكوَّنة من أنْ ، لا ، وعند إدغامهما تُقلَبُ النون لاماً فتصير : ألاَّ ، فالمعنى : وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، لماذا ؟ لألاَّ يسْجدوا ، فهنا حرف جر محذوف كما تقول : عجبتُ من أن يَقْدم علينا فلان ، أو عجبت أن يقدم علينا فلان .

وفي قراءة أخرى[1] : (ألاَ) للحثّ والحض[2] .

(١) هي قراءة الزهري والكسائي وغيرهما ، بمعنى : الا يا هؤلاء اسجدوا [ذكره القرطبي في تفسيره ٧/٥٠٦٨] قال الكسائي : ما كنت أسمع الأشياخ يقرءونها إلا بالتخفيف على نية الأمر .

(٢) قال الزمخشري : فإن قلت : أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً أم في إحداهما ؟ قلت : هي واجبة فيهما جميعاً ؛ لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها ، وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذم للتارك . [ذكره القرطبي في تفسيره ٧/٥٠٦٩] .

وقلنا : إنه اختار هذه الصفة بالذات ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ [النمل] لأنه خبير فى هذه المسألة ، حيث يرى الماء فى باطن الأرض ، كما يرى أحدكم الزيت فى إنائه .

والمراد بالخبْء فى السموات : المطر ، والخبْء فى الأرض . النبات ، ومنهما تأتى مُقوِّمات الحياة ، فمن ماء المطر وخصوبة الأرض يأتى النبات ، وعلى النبات يتغذَّى الحيوان ، ويتغذَّى الإنسان .

بل إن الحق سبحانه ﴿ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل] ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) ﴾ [إبراهيم] ، وفى آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ..(٢٩) ﴾ [آل عمران]

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (٢٦) ﴾

لما تكلَّم عن عرش بلقيس قال ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] يعنى : بالنسبة لأمثالها من الملوك ولأهل زمانها . فإذا عُرِّف ﴿ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) ﴾ [النمل] فإنه لا ينصرف إلا إلى عرشه تعالى ، فله العظمة المطلقة عند كل الخلْق .

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) ﴾

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ .. (٢٧) ﴾ [النمل] والنظر محلُّه العين ، لكن هل يُعرف الصدق والكذب بالعين ؟ لا ، فالكلمة انتقلت من النظر بالعين إلى العلم بالحجة ، فهى بمعنى نعلم ، ونقول : هذا الأمر فيه نظر يعنى : يحتاج إلى دراسة وتمحيص .